

تاريخ القرآن

(35) نزل القرآن بأرقى صور الوحي، وتأريخ نزوله يمثل تأريخ القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو تأريخ يستغرق ثلاثة وعشرين عاما (1). هذه الحقبة الذهبية هي تأريخ الرسالة المحمدية في عصر صاحب الرسالة، والعناية بها منبثقة عن عناية الوحي بصاحبها، وبتواجده معه، يحمله العبء حيناً، ويلقى له بالمسؤولية حيناً آخر، ويتناول عليه بآيات الله بين هذا وذاك. وكان نزول القرآن مدرجاً، وتفريقه منجماً، مما أجمعت عليه الأمة، وصحت به الآثار الاستقرائية، استجابة للضرورة الملحة، واقتضاء للحكمة الفذة في تعاقب التعليمات الإلهية، يسراً ومرونة واستيعاباً. والذي يهمننا في هذه المرحلة، عطاؤها الإنساني في ضبط النص القرآني، ودقة أصوله ووصوله من ينابيهه الأولى، وهو موضوع البحث. يكاد أن يتوافر لنا اقتناع نطمئن إليه بأن أوائل سورة العلق: هو أول ما نزل من القرآن. ومنشأ هذا الاقتناع تأريخي وعقلي، أما التاريخي فمصدره إجماع _____ (1) هنالك عدة أقوال في مدة نزول القرآن؛ فقول: عشرون، أو ثلاث وعشرون، أو خمس وعشرون سنة. وهو مبني على الخلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وآله وسلم بمكة بعد النبوة؛ فقول عشر سنوات، وقول ثلاث عشرة، وقيل خمس عشرة سنة. ولم يختلف في مدة إقامته بالمدينة إنها عشر. (ط: الزركشي: 1 | 232) فإذا علمنا أنه صلى الله عليه وآله وسلم أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفي وعمره ثلاث وستون سنة، ترجح أن تكون مدة الوحي ثلاثة وعشرين عاماً.